

عروض نقدية

مذكرات نوبار باشا.. وإعادة كتابة التاريخ

عرض: د. مصطفى عبد الغنى

لا يمكن قراءة تاريخ مصر دون أن نعود لهذه المذكرات..

كما لا يمكن إعادة قراءة التاريخ دون أن نعود لهذه النصوص المهمة.

رددت هذه المعاني لمرات كثيرة وأنا أقرأ هذه المذكرات فى ترجمتها الأولى - العربية، وعبر إسهامات دالة فى هذا الصدد سواء فى المقدمة وتقديم الملاحظات "ميريت بطرس غالى" أو فى الترجمة الوافية "جارو روبير طبعيان" أو عبر المراجعة والتقديم والتعليق لكل من د. الهام زهنى ود. لطيفة محمد سالم.. مادة خام ثرية سرية كما نرى.. ونشرت أخيرا عن دار الشروق.

وتقدم هذه المذكرات فى فصولها الأولى منذ عصر محمد على وإبراهيم وصولا إلى الفترة الأخيرة لحكم الخديو إسماعيل مروراً بحكم وممارسات عباس وسعيد.. وما تبع هذا وتخلله إعادة النظر لهذه الأحداث، ليس من وجهة نظر مؤرخ، وإنما من وجهة نظر مشارك فى الأحداث وصانع لها نوبار الذى كتبها مابين نوفمبر ١٨٩٠ ومايو ١٨٩٤ أى بدأ فيها وهو فى عمر يناهز الخامسة والستين ولم يكن قد اعتزل العمل السياسى - والمعروف أنه تولى مناصب عديدة ومهمة فى القرن التاسع عشر..

لقد اشتملت هذه المذكرات على الفترة الممتدة من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٧٧٩ أى قرابة أربعين عاما تغطى هذه الفترة منذ قدوم نوبار إلى مصر حتى تم عزل هذا الحاكم..



مذكرات نوبار باشا / ترجمة جارو روبير
طبعيان؛ مقدمة وملاحظات: ميريت بطرس
غالى؛ مراجعة إلهام زهنى؛ تقديم ودراسة
وتعليق: لطيفة سالم.. ط ١ - القاهرة: دار
الشروق، ٢٠٠٩.
٧٢٨ ص: صور، علا؛ ٢٤ سم.
تدمك: ٣ - ٢٤٦٧ - ٠٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨
السياسيون ديوى ٩٢٣

كما تضم اربعة اقسام تمثل واحدا وأربعين فصلا يخصص فيها صاحب المذكرات كتاباته على النحو التالى:

- ستة فصول لمحمد على وإبراهيم وعصرهما
- وأربعة فصول لعباس
- وستة فصول لسعيد
- إسماعيل يستحوذ على خمسة وعشرين

فصلا

إن هذا الجهد الكبير شهد ذلك التأريخ من رجل عاش الأحداث وشارك فيها، وهو مابدا فى تقديم هذه النصوص التى شغلت فى البدايات بالعديد من المقدمات المهمة ، كما أنها لم تغفل فى نهاية المذكرات من إيراد ملحقات تسجل مقتطفات من الخطابات وملاحظات على الترتيب الزمنى فضلا عن نماذج من وثائق نوبار وصفحات من مذكراته بخط يده فضلا عن بعض خطابات الخديو إسماعيل وفرمان مهم فى هذه الفترة.

ومنذ البداية نلاحظ تسجيل أهمية مذكرات نوبار، فإنها رغم أهميتها لم تنشر أول مرة الا بالفرنسية فى بيروت ولم يترجم منها الا مقتطفات بسيطة استعان بها البعض بعيدا عن سياقاتها لتشغل فى النص المترجم الأمين كل هذه الصفحات التى صدرت أخيرا لرجل عرف بمواقفه السياسية واهتماماته الثقافية مما اهله ليلعب دورا رائدا فى تاريخ مصر فى هذه الفترة فى العصر الحديث، الفترة المهمة فى بدايات القرن التاسع عشر.

وهو ما يقترب فيه أكثر من المقدمة المهمة التى اضافتها د. لطيفة سالم فى استدعاء الماضى قبل أن نصل إلى النص التاريخى والفكرى والسياسى المهم.

وقد أشارت منذ البداية إلى طبيعة هذا النصوص، حيث عرف الغرب هذا الشكل من المذكرات بثلاثة أشكال:

- اليوميات
- المذكرات
- الذكريات

مارس فيها نوبار عمله تحت مفهوم الذكريات التى يشحذ فيها الكاتب ذهنه لاستدعاء أحداث الماضى، ليجمعها، كما تؤكد المؤرخة هنا - بعد فترة طويلة من وقوعها، ومن ثم يكتنفها بعض القصور..

وهو ما يجب التنبه معه إلى عديد من السلبيات والايجابيات فى تسجيل مثل هذا العمل عبر استدعاء الأحداث والشخصيات التى كان لها تأثير كبير فى تحول مصر أولا ثم تطورها ثانيا "فعلى

الرغم محاولات نوبار إتباع الترتيب الزمني، فإنه لا يتقيد تماماً بذلك؛ إذ يعود إلى الخلف ليسبح مع تيار الذكريات، ثم يشير إلى ما سوف يحدث، وذلك بصدد موضوع معين، نظراً لتشابه الظروف. وتلاحظ د. لطيفة سالم هنا أن الكاتب - نوبار - يعلل عدم التزامه بالتدرج بأنه لا يقوم بكتابة نص تاريخي. ومما يلاحظ أن ارتباط الأحداث بالسنوات غير مكتمل، إذ تتداخل الأولى قبل أن تتوه الثانية، ويقر بهذا، فيذكر أنه يستطرد ويبعد أحياناً عن ترتيب الوقائع، وذلك على الرغم من تدخل ابنه وكاتب مقدمة المذكرات في ضبط الأحداث مع تاريخها..

وفي هذا الصدد فقد بدا أن نوبار يعترف بأن ذكرياته غير دقيقة، فهو لا يجزم برأى، وإنما يعرض لأحتمالات.. وحتى عندما يستنتج رأياً يردفه بأنه لا يتعدى أن يكون افتراضاً شخصياً. وكثيراً ما يعرض أكثر من رواية للحدث، ويقول أنه لا يدرى أى واحدة هي الصحيحة، وهو ما يمكن أن نوافق معه صاحبة الدراسة المهمة في البداية على أنه نوعاً من الأمانة في الكتابة.

ونستطيع أن نلاحظ التغيرات التي كتبت بها المذكرات من حيث التنبيه إلى فترات دون أخرى وقضايا دون قضايا أخرى في السرد التاريخي، من ذلك ما لاحظته د. لطيفة سالم من أن نوبار استبعد من مذكراته حياته الخاصة، فهو لم يكتب سيرة ذاتية في المقام الأول كما أسقط فترة توليه نظارتيه الثانية "بين عامي ١٨٨٤، ١٨٩٠.

وقد أرجع البعض السبب إلى أن صحته لم تكن تساعد على تسجيل الأحداث ولكن هناك اعتقاداً بوجود أسباب أخرى جعلته يبتعد عن الكتابة في تلك الأثناء حيث كان الإحتلال البريطاني جاثماً على قلب مصر.. كما أن التوقف عند نظارتيه يجعلنا نعقد أنه قام بتسجيل هذه الفترة الأخيرة من تاريخ مصر في القرن التاسع عشر بما يشكل وحدة "مترابطة لتاريخ مصر الحديث في أكثر من نصف قرن، عاصر فيها سبعة من حكام مصر وتعامل معهم، وكان له الموقع المتميز على الخريطة السياسية"

وكان الواضح كما لاحظت صاحبة الدراسة الأولى أن نوبار حين كتب مذكراته كتبها وفقاً "لطابع الكتابة في القرن التاسع عشر وبخاصة الأجنبية فيما يتعلق بالشكل، فإنه يبدأ الفصل بالعناصر المتتابعة التي يتكون منها، وهي تتفاوت في حجمها وفقاً لما يحتويه الفصل، ولكنها لا تشكل عناوين داخلية، تلك التي تيسر أمر الإطلاع أما عن الأسلوب الذي أتبعه "فهو السبيل الممتنع، والثرى والشائق، اختار التعبير القصصي في أحيان كثيرة وذلك باستحضار الأمثلة ونقل الحوارات سواء التي تدور بينه وبين الآخرين وخصوصاً الممثلين الأجانب أو التي أسمعها ممن أدركوها، مما يجذب القارئ ويجعله يسارع في قلب الصفحات وكله شغف ليعرف المزيد والمزيد.. كذلك فإن اتباعه طريقة طرح الأسئلة عن استنتاجات وافكار. وكثيراً ما يجب عنها ويذكر أنها مجرد تساؤلات، وهذا يشهد الأذهان لما وراء القصد" ..

وفي هذا الصدد يلاحظ بالفعل أنه حين استخدم نوبار مصطلحاته كان متأثراً فيها بالكتابات الأجنبية، كما شغلت الهوامش التي إتخذها أرقاماً المكان في المذكرات، إذ تعد مكملة لها، كما أعطتها الحيوية، وشكلت في معظمها مقتطفات من الخطابات التي بعث بها نوبار إلى زوجته، وقد عكست أهمية المرأة بالنسبة له كما لاحظت المقدمة وكيف عاشت معه الأحداث وشاركته السعادة والشقاء. ومن اللافت للنظر أن تلك الخطابات اقتصر على جانب واحد هو الزوج.

ورغم أننا نلتقي بالسؤال المحوري في بداية المقدمة: هل كان نوبار ذلك الرجل الذي أحب مصر وكان يعمل لمصلحتها ؟ وهل هذه الصورة الوردية عنه والتي رسمتها مذكراته قد استخدمت فيها اللمسات الناعمة ؟

نستطيع أن نقول مع د. لطيفة في مقدمة الدراسة أن شخصية نوبار التصفت بالسلبيات وبخاصة أن فترة حكمه شهدت تدخل القوى الأجنبية في شؤون مصر، ومع ذلك، يمكن أن نتمهل عند عديد من الملاحظات منها:

- أن الإتجاه الإسلامي في ذلك الوقت جعل ظهور شخصية نوبار المسيحي الأرمني لا تلقى القبول.

- كانت لنوبار رؤية خاصة نبعت من تكوينه الثقافي ومهامه داخل مصر وخارجها مما إكسبته الخبرة.

- ركز نوبار على مسألة مهمة إختصت بالوافدين الأجانب على مصر.

- هاجم نوبار الضرائب بكل أدواتها والسخرة بكل ماتحملة من آلام.

- شبكة علاقاته الخارجية كانت ورقة رابحة في يده.

- كانت علاقاته ببريطانيا علاقة مؤكدة.

- حين كان يشكل وزاراته كان يصبر على وجود عناصر أجنبية فيها وهو ما نستطيع أن نردد معه السطور الأخيرة لصاحبة هذه المقدمة من أن مذكرات نوبار حملت بين طياتها نبرات صادقة، من خلالها ندرك أن صاحبها في كثير مما أقدم عليه أراد به الإصلاح، ولكنه يعترف بأن النتائج لم تكن ثمراتها حلوة المذاق كما أرادها، بل كان منها العلقم، وذلك لتدخل الآخرين داخلها وخارجها، الذين تعددت وسائلهم ولم يستطع مواجهتها.

وعلى هذا النحو، يمكن القول أن هذه المذكرات التاريخية حاولت أن تسهم مع غيرها في رسم التجربة المصرية المهمة في القرن التاسع عشر، هذه التجربة التي شهدت مصر فيها العبور إلى العصر الحديث، في وقت كان يحوطها في الداخل والخارج أطارات كثيرة.

كم أن الأهمية لهذه المذكرات تشير إلى أن تاريخ مصر لم يدرس بالشكل الكامل، ذلك لأن الكثير من الأحداث التاريخية تعاد بشكل متكرر كثيب ولا يستفيد منها أصحابها.

خاصة أن الذي كتب التاريخ هذه المرة كان أحد المشاركين فيها بل وصانعيها.. وهو ما لم نستفد منه بالشكل الكامل حتى اليوم.